خديجة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الرابع

« المرأة والعالم »

محمود النجوري

تاجور في الحياة والاخلاق

والمدنية والسياسة والمرأة والادب والدين

— ٣ —

لمحمود المنجوري

ظلّ تاجور طويلاً يتحدث عن العالم في وحدته الروحية ، ولكنهُ لم ينسَ العالم الصغير ، الأسرة والبيتَ ، فكتب روايته « البيت والعالم » The Home and The World [1] وحدّثنا حديثاً اجتماعيّاً كلهُ عذوبة وحياة وشعر ولسنا بسبيل تلخيص هذه الرواية بقدر ما نحن بسبيل استخلاص آرائهِ الاجتماعية في المرأة والرجل وفي الزوجة والبيت وفي الانسان والوطنية وفي الاستعمار والحرية

عند ما عالج تاجور العالم عالجه على أنه أسرة واحدة ، ولكنه عند ما عالج شؤون الأسرة عالجها على انها العالم كله : « فالبيت والعالم » هو العنوان الذي اختاره تاجور لروايته التي بسط فيها آراءه في تطور المرأة في الحياة والاجتماع والأسرة ... يناجي بالفتاة « بيمالا » فتتحدّث اليك :

« كان زواجي في قصر الزفاف « بكول » وكنت أقرأ في جميع وجوه المدعوين ما يكتبونه عني بالاسر ولكن وجه زوجي لم يكن ينطبق على هذه الاوصاف فقد كان مني بمنتصف الطريق ، وزاد من قلقي شعوري بأني لست فتاة حسناء ، ولقد طبع هذا الشعور على نفسي جرحاً عميقاً ... ولكني مع حبي المرأة كان احب عندها ديناً وكان حبيب موضع التقديس والعبادة »

فبيمالا فتاة هندية من عامة الشعب لا يرتفع نسبها الى مجد الزفاف الذي تزوجت منه فهو من أسرة من أعرق أسر الهند حسباً ، ومن أشدها تمسكاً بالتقاليد ، هي تشعر دائماً بهذا الفارق . ولكن زوجها كان رجلاً مثقفاً ثقافة غربية ، فهو من رجال العصر الجديد تلقى علومه في الكليات والجامعات وثارت في نفسه الشكوك في تقاليد الأسرة . فلم يشأ أن يجعل من الزوجة أسيرة قيدة البيت لا تشاركه الحياة ، ولكن زوجته مجبولة على تقديس الزوج كما نشأتها التقاليد الشرقية

---

(١) نقلها الى العربية الاستاذ فيليبس عبده قلا ملخصاً

« انه زوجي لم يكن يدع في بالا لكي أعبده ، وهذا تتجلى عظمته فان هناك فريقاً من الرجال يريدون أن يكون خضوع الزوجة للطاني حقاً من حقوقهم ، وهذا عار كبير عليهم وعلى الزوجة التي يريدون تقييدها بهذا الحق ، ان حب زوجي إياي كان ملؤه الاخلاص ، ولكني علمت لاعطي أكثر مما أخذ لان الحب يشبه تلك الازاهير التي تنمو في السهول أكثر من نموها في أواني البلور »

هي زوجة شرقية تريد أن تعبد زوجها ولكن زوجها رجل مجدد يأبى عليها ان تعبده ، لا يريد منها الا أن تعرف أن الرجل والمرأة يتساويان في الحب ، وهي تعترف في حوار معه « بأن أفكار النساء صغيرة معوجة » ولكنه يجيب : « ليس هذا ذنبهن ألا ترين ان أقدام الصينيات صغيرة فذلك الذي جعلهن على هذه غير الضغط عليها منذ الحداثة »

لقد كانت زوجة بريئة لم تتطرق اليها الأفكار الجديدة التي كانت تجتاح الشرق منذ حين فهي تقول :

« كان أميري صاحب مملكة ، فبي تتجها وأنا ملكتها الجالسة على عرشها ، ولكني كنت أفرح حين أشعر ان موضعي يجب أن يكون عند قدميه »

انها تفكر في تقاليد الشرق الكريمة فتقول :

« يا زوجي الحبيب لقد كنت عظيما حين كنت تنهاني عن أن أعبدك ولكنك لو رضيت بي عابداً لأحسنت إليّ أجل إحسان ... ان سعادة المرأة الحقيقية هي أن تحب فان قضيتم على كبريائها في هذا الحب قضيتم عليها »

ولكن الزوج المجدد لم يكن يرضيه ان يجد في زوجته هذا الخلق الشرقي الذي يرجع التقاليد في جميع ما يصدر عنها كزوجة لا ترى العالم الا في زوجها ، ولا تلتمس منفذاً الى الحياة الا من طريق تفكير الزوج وارضائه . لقد أبى الزوج هذا وأراد أن تكون زوجه جديدة متصلة بالعالم من حيث هو حركة دائمة ، فهو سعيد بزوجته عند ما يراها حرة مطلقة تعاشر في الحياة

« ان الرجل القديم الذي يحب انسانة لا يتردد في تطليع السكة بأنه كما يشتهي ، أما الذي يحب انسانة الحي فيود أن يراه سابحاً في الحياة »

ولكنها زوجة تأبى الحضور الى الآداب العامة في حين ان الزوج يود صادقاً

« أن يحل القيود القديمة وأن يخرج بها من ظلمة التقاليد الى نور العصر الجديد »

ويرغب كما تقول الزوجة :

« أن أنهج وإياه مناهج الغربيين فتكون الدنيا بحذافيرها ذلك البيت الذي نقيم فيه »

وانها لتسأل « أي شأن لي مع العالم الخارجي ؟ » فيجيبها :

« ان العالم الخارجي قد يكون له شأن منك »

وتظل بيالا لا تجاري الزوج في تطلعه ، فهو يرجو أن يجد في زوجته المرأة التي تتساوى والرجل في الحب ، أو في الأقل تتساوى وإياه في حرية الافضاء بالحب . وهو يرجو

ان يجد في زوجته امرأة التي يلتمس في قلبها بالحقيقة سافرة لأنه يؤمن

« بأن الحقيقة غير موجودة ، إلا في قلب المرأة فهي التي تعرف أن تكون جبارة ، غضبها حقيقة كالعاصفة المياه ، ولكنها جبلة رادعة حين تبدأ العاصفة فيشرق على قلبها الصفاء والدعة والنسيان »

وهو يرجو أن يجد في زوجته « المرأة التي تخلق الجمال في قلب الرجل وان لم تكن جبلة »

يريد زوجته « ان تكون امرأة قادرة على الخلق والايجاد والابداع »

يريد أن تكون

« مصدر وحي ثائر وأن يعترف الناس باسمها على أنها امرأة قد خلقها الله خلق مصور فنان وألا تكون كالرجل خلق بالطرقة والسندان »

هو الزوج الذي يريد من زوجته أن تكون

« كصيدلية بها من المخدر ما يكفي لتخدير أعصاب الرجل فلا يشعر إلا كما يشعر النائمون المخدرون ، ولا يحس آلام الجرح إلا عندما يستفيق »

يريد من زوجته أن تكون على سجيتها

« كالماء بركة مفيدة حين تجري ساكنة هادئة ، وهي قوة مخربة حين تهيج وتطغى »

يريد من زوجته أن تعلم

« ان الرجل يحب زهو الالوان ، وانه يؤثر الدعوة على الاغراء وانها يجب أن تتقي شره الرجال تشغل نفسها الى شراب مسكر وانها امرأة من واجبها أن تعلم حقاً انها في حاجة دائماً الى مخادعة الرجل واستهوائه ، وان ليس أطيب الى الرجل من أن يعيش معه مخدوعاً دائماً في عالم من الاماني والاحلام »

يريد منها ان تكون امرأة لا تعرف التردد « لان التردد ليس من طبيعة المرأة »

يريد منها أن تحكم دائماً في رقاب الرجال كطبيعتها وغريزتها وأن تصرح دائماً بما في قلبها ، وأن تقول أبداً « اني أريد » ، ان قالة « أريد »

« هي كلمة المرأة الاولى التي لا يوحي اليها بشيء لانها مصدر الوحي والسيطرة وسر القوة في الحياة ، فقد أرادت الطبيعة للمرأة ان تملك أقوى قوة في الوجود فضحت بالملايين من الحيوان خلال الملايين من السنين فاستملكت الرجل — ان الارادة قد استعانت أن تشكل انساني فكانت في صورة المرأة ، ولهذا حاول الجبناء من الرجال بالعديد تقييد هذه القوة وأخفقوا ، وهي وان كانت ساكنة هادئة فانما هي في سكون البحيرة العميقة كل اشتد الحبس وقوي الضغط عليها كلما تفجرت ساعة هياجها وطغيانها ، وستخرج البحيرة مخربة جسورها ، مهلكة ما حولها ، وسيطوف السجين هذا العالم ثائراً يقول : اني أريد اني أريد »

يريد الامير الهندي أن تعلم زوجته انها امرأة لا تعرف في الرجل إلا ضعفه

« وان الله حين خلق الرجل لم يكن قد تدرب بعد في الابداع فخلقه كما تيسر ، على حين ان دور المرأة كان قد صور فنانا مختارا كما تشاء »

ويريد الزوج أن يجد في زوجته هذه المرأة التي تستطيع أن تخلق في قلبه الغيرة

« لان الغيرة ضعف ، متى ضعفت في الرجل القوي تم للمرأة ما تريد من مكر وادلال واستيلاء »

ولكن الزوجة « بيالا » بقيت امرأة احتواها الخلق الشرقي داخل الحريم وديعة تعبدُ ربَّها في خلاص وتفنى في سجودها بين يدي الزوج ، وتستولي على قلب الرجل لا من طريق القوة والايحاء ولكن من طريق الضعف والاستسلام . تريد أن تبقى دائماً حالمة في هدوء النوَّم المستوى . ولبثت على حالها لا تجاري زوجها حتى ظهر في بلاد البنغال مبدأ النهضة الوطنية ومقاطعة البضائع الاجنبية ، فسرت فكرتها مع الدم في عروقها وأشعلت قلبها على الرغم من أن أبواب القصر كانت موصودة دون الصال ، ولكنها كانت تسمع نداء الوطن كالهمس لا تتبينهُ خلال النوافذ الاَّ انه نداء الضمير الوطني ، وانها تشعر بأنهُ نداءٌ مقترب منها ممتزج بقلبها ملتصق بعواطفها دون استئذان أمير أو سلطان ، وحدث ان زعيم هذه الحركة «ساناديب» اتصل بزوجها الامير واختلط بهِ داخل القصر لما بينهما من ود وصداقة ، على الرغم من ان الامير كان من معارضي هذا الزعيم في حركته الوطنية العنيفة ، ولكن ساناديب الزعيم الذي ملك عنان البلاغة قد أهاج مواطنيه ومثل الوطن كائناً يجب ان يعبد ويشر بمبادىء المقاطعة واتخذ ناحية من قصر الامير مكاناً لاجتماع وطني كبير شهدتهُ النساء لاول مرة من وراء حجاب ، وارتفع النشيد الوطني وملأت الحماسة كل مكان وانحدرت الجماهير الى القصر انحدار السيل من قمم الجبال ، ووقف الزعيم يخطب هذه الجماهير المتلهبة فأورى فيهم ناراً آكلة وحسبت الزوجة وحسب النساء معها ان «ساناديب» ليس ببشر وانما هو رسول من الآلهة ، جاء لهدايتهنَّ . وهنا اخترقت الزوجة بيالا الحجاب الذي يفصل بين النساء والرجال واقتحمت طريقها في قوة

« وشعرت بأن نواحا قد تلاشت فلم تعد المرأة المحجبة زوج الراجاه ، بل صارت ممثلة لجميع نساء البنغال »

لم يكن الامير[1] من مؤيدي الزعيم « ساناديب » في أسلوبه العنيف الذي أراده لتوجيه حركة البلاد الوطنية ، فساناديب يريد حركة ثائرة كالبركان تخرِّب وتقتِّل وتهدِّم ، يريد الدماء

« لان الاستقلال شجرة لا تروى الا بدماء الضحايا »

ولكن الامير « نيكيل » يأبى التخريب ويشيد البناء ، ويريد الزعيم ان يخلق من الوطن هيكلاً وثنيًّا تعبده الناس وتضحي في سبيله الرقاب ولكن الامير الهندي يُعلن رأي تاجور في الوطنية فيقول :

« اني أخدم بلادي ولكني لا أعبدها ، فاني أعبد الحق وهو أعظم من بلادي ، أما من يعبد بلاده فانما يعبد الله دون شيء آخر وهو يخدع نفسه انه قد بذل الاحسان في سبيلها »

ولكن الزوجة اندفعت وراء بلاغة الزعيم وسحر بيانه فامتزجت في الحركة الوطنية ،

(١) أورد تاجور آراءه في الوطنية والسياسة على لسان الامير نيكيل

وأخذ الزعيم ينفخ فيها ليخلق منها المرأة التي تقود حركة الوطن لخدعها ليستغل نهوض زوجها الذي أمسكه عنه . وشعرت الزوجة

« بأنهم انما تتفق على أن الاله لم يجعل منه أجمل من خلقه . لا تفترق بجمالها قلوب الرجال . بل لان الجمال مجد كالبطولة والبلاغة التي تخرج اليها الشعوب . ولان الرجال في هذه النهضة كانوا يحتاجون الى إلهة ، ولن تكون إلهة منهم الجمال »

وكانت تحني نفسها بأمل هو أعذب الآمال ان قلبها فتقول دائماً

« ألا لست جديرة أن يجعلني إلهة النهضة ! »

وأخذت شخصية الزعيم الوطني تستهوي الزوجة بيمالا . وكان كثير التردد على القصر فأصبح يدخل عليها وعلى زوجها دون استئذان ، وبدأت بيمالا تحس في حديث الزعيم لوناً ملتهباً « كالنور غير المنظور ومس الى قلبها ورأت عيني ساندیب تضيئان تماما كما يضيء المصباح المقدس في الهيكل وأخذ يضفي عليها من الأحاديث المغرية ما جعلتها تحسب نفسها الهة توحي الجنان والقوة والالهام الى زعيم النهضة الكبرى التي تقود البلاد ، وأيقنت في نفسها مما املاه عليها ساندیب لن لها من القوة الكامنة ما تستطيع به اقتحام أعظم الأمور ، وان تلك هي قوة روحية جاءتها من وحي بعيد عن نفسها »

وقوي الشك وترددت الظنون داخل قصر الامير كلما ظهر ساندیب في غرفة الزوجة . والزوج يراقب الامور تسير دون اعتراض منه . ولكن الزوجة لم تكن لتعبأ بشك أو ظان لانها تحدث نفسها فتستمع الى قلبها ينادي

« من أجل الخضوع في سبيل الحب ما لذة رق صرت ساندیب ولان حتى صار دلالا وتحولت نظراته فصارت مهراً وتوسلا ، وتقاطر وجودي حتى خيل إلي أنه قد انتزعني من نفسي »

ولكن الزعيم لا يكتفي بأن يختلس قلب الزوجة من زوجها ، فهو رجل أثير بقي حياته على :

« ان كل ما يستطيع انتزاعه من الآخرين فانما هو له . وان الحياة في نظره غادة حسناء لا يعرف معنى العفاف ولا تدوم عنده إلا للعصوف ، لانه يحب العنف والاختطاف . انها التي تمنح زهراتها المتزهدين »

هو رجل تتمثل فيه الحيوانية وتطغى عليه الانانية فيرى في خُلُق صديقه الأمير ضعفاً يتعارض مع طبيعة الحياة — انه لا يريد أن يخرج من الدنيا فارغ المعدة غير مزوّد إلا بكلمات رنانة لا يقنع بها غير البلهاء . انه يؤمن

« بان الجمع مثلي ولولاه لما كانت الاموال ، ولتعفت القصور — وان حقيقة الحياة هي عو قوتي يبني ويجمع المال ، ولمن يستخدم قوته وحيلته لسرقة هذه الاموال »

ويا لساندیب من زعيم دموي جبار قد احاط بالعنف والانانية واحتوائها في نفسه حين يقول :

« ان العدالة لا توافق غير صغار الاحلام أما العظماء فهم الذين يؤثرون الظلم ليعيشوا فوق الهامات »

« لقد كانت البراكين عادلة يوم نفثت بقرونها النارية الى الارض المنبسطة ، ومنذ الذي يقول لقد ظلم البركان الارض يوم نفثها ؟ لابد للظلم دائماً من ثورة تدفعه ، لانه لا يفوز إلا بالشدة — ولقد أغنى الظلم شعوباً وأمماً وأفراداً — وما كانت العدالة لتغني شيخاً ولذلك أراني أقدس الظلم وأخدمه بحياتي — وأدعو الناس في إخلاص الى ان خلاص بلادكم ان يكون إلا بمقابلة الظلم بمثله ، فاظلموا تفوزوا »

« اني لا أعترف بالفشل ولا بالتردد ولا بتأنيب الضمير ، لم لقد خلقت فتاجي في الحياة هو : اني أريد وان كان ما أريد . وبهذا دان لي النصر الاكيد »

« ان تأنيب الضمير مرض فكري يصيب العظماء من الناس ولا يدع لهم وقتاً لتأليف نفوسهم وكيانهم وعظمتهم ، لانه لا يوجد التناسب بين حياتهم الخارجية وبين ميولهم التي يخفونها حتى عن نفوسهم

وانه ليقول ، عندما استساغ بيالا زوج صديقه الامير ومهد في نفسه « خيانة أميره »

« أما نحن الصواري فان لنا آباءً وبرائن نقبض بها على الفريسة فنمتص دمها ونمزقها إرباً ، ان تقنع بالاجترار متأكل العشب في الصباح لتجتره كالمواشي في المساء ، نحن لن نسمح لهؤلاء الذين يعيشون في الفراديس أن ينقضوا أبوابها دوننا ، لابد أن نسرق غدهم لنعيش . ان عاطفة الدم هي العاطفة التي تقود النساء وتثب على غرائزهن . ان العاطفة التي تجذب النساء لا توجد إلا عند عظماء الرجال ، والنساء هن حطب الثورات وشريان الدماء »

تخلق ساندیب خلق اناني ، لا يرى حرجاً في اختطاف أية امرأة سائغة له فهو اباحي يقول:

« لقد راجعت حسابي مع الطبيعة فوجدت ان امتزاجي بامرأة خاصة هو بدعة لا تنسجم امتزاجي بغيرها »

وهو بهذا الخلق الجائع ينظر بعينين جائعتين الى بيالا زوج الامير الكريم ، وهو بهذا النظر يريد ان يخلق من وداعة المرأة الشرقية الحفيظة على عقيلها وزوجها ، امرأة ثائرة على البيت تستقبل العالم كأن الرجال جميعاً متع لها ولشهواتها الجائعة

وانه لا يرى في هدوء المرأة ودعتها الا استكانة لذلة وتلبية للقيود والاغلال التي وسفت فيها القرون تلو القرون . ولئن فكت امرأة من أسارها واطلق لها العنان لانت كالعاصفة أو كالنار لا تبقي ولا تذر — وانه لزعيم ثائر يريد ان يستهوي الجماعات كذباً وتزويراً تلبيةً لاهوائه ، ويريد ان يوجه الجماعات كما يريد ، وان يستولي عليهم استيلاء الكاهن الفاسق الذي تعبده الجماعات وتحج اليه مصليةً طائعة — وانه لهذا لابد له من امرأة ذات نفوذ وهي امرأة الامير الثاني . ولا بد أن يخلق منها تمثالاً سافراً ، هو لعبته ومستغله وهو له الجماهير يقدمه لهم إلهاً فاعبدوا هذا الله الوطن ! ان من يصطنع من المرأة إلهاً فله أن يستمتع به وان يهدمه متى شاء

ولقد احس تاجور ان الثورة الهندية قد افسدت على المرأة الهندية حياتها الزوجية الوادعة فأطلقتها دون حيطة أو تريث الى العالم الخارجي — ولقد بان ذلك على لسان ساندیب فقال :

« ان بيالا لتضطرب كما تضطرب الخامة حين سقوطها في الفخ . من حق أن أفرح لهذا المشهد كما يفرح الصياد

آني ما شئت بيالا بالضعف والوهن بل اني ألمت جناحيها برجولتي وبأسي وقوتي . . . سأوحد بيالا بالوطن — إن هذا الهواء الغربي العنيف الذي نزع حجاب الضمير عن البلاد سينزع عن بيالا حجاب الزوجة ، فترى منظراً رائعاً من الخلاص وتحل قيودها دون شعور ، بل دون أن تشعر . وان تتردد لحظة في الجنوح الى القسوة. ان القسوة من طبيعة المرأة ولها من قوة الارادة ما تصون به جمالها

أن المرأة لو استطاعت ان تتخلص من القيود الحديدية التي قيدها بها الرجل لرأيناها على الارض مثال الالهة « كالي » الهة التدمير والقسوة والازدراء !

اني من عباد هذه الالهة . اني سأعبدها يوما باسم بيالا حين أجلسها في الهيكل على عرش التخريب الذي أعده لها

هذا هو الشيطان الذي أفسد حياة الأمير واخرج حواءه من جنته كما صوّر تاجور

***

ولكن الزوج النبيل رأى ان زوجته قد أصبحت فريسة لنيار جرفها ، ولم يشأ ان يكون عنيفاً ، فليس من طبعه العنف فيصد زوجته عن ارادتها ، وانهُ ليخاطبها :

« اني أيتها الزوجة الحبيبة لاعلم اني أقيد نفسي بقيد من حديد اذا قيدتك ، وأية فائدة لي من القيود ، فلك حريتك فأنا أحب أن أكون زوجك لا سجانك »

لقد شاء تاجور أن يصور لنا زوجاً مثالياً ، لا يتعرب أية قوامة على زوجته ، بل يلذ لهُ أن يدع الزوجة حرة مباحة العاطفة والتفكير والخواطر ، وانه عند ما يهب زوجته دستورها في الحياة فانما هو الآخر سينال من قلبها أعز شعور وأكرم وجدان — وانه ما كان لينال من قلب المرأة هذا الحنان الصافي اذ هو استبد بها وأكرهها على ما يحب ويريد ويرضى ، فالمرأة عاطفة وقلب ، وما كانت لعاطفة ان تنزع قسراً ، وما كان لامرأة أن تهب نفسها خالصة لزوج طاغٍ جبار

طافت هذه الاحلام الكريمة في رأس الزوج وآمن بها ، ولكن زوجته امرأة تعبد القوة وترتضي من الزوج قسوته وعنفه وشدته ، لانها تعشق في الزوج رجولته ، وتأبى عليه الليونة والدعة ، وهي امرأة ، وامرأة مخلوق جبلته السنون على أن يكون مأموراً فيطيع ، وضعيفاً فيرضى وذليلاً فيخاف . انها متى صادفت ذلك الزوج المثالي أتهمته بالضعف وضعف العزيمة لانه لا يعرف كيف يستعمل العنان في فم المرأة ، إنه رجل ضعيف لانه قد فقد الغيرة وحرم العنف والشدة ، وهي إنما تعبد في الرجل القوة فتخضع والعنف فترضى

« ان بيالا ، تعربي حق التعرية ، قالي اعد العنف والقط ضعفه وخوراً . فليس يخاف من العدل غير الضعيف ، فهو الذي ينزع عن واجب العدل ويحاول بين النتائج مباشرة من طريق الظلم والجور والاستبداد . ان بيالا ترتضي الغضب والظلم من الرجل لانها لا تستطيع ان تحترم من لا تخافه »

ولقد حرر الزوج زوجته من جميع الالتزامات الزوجية . لأنه قد وجد فيها القيود والأغلال فتركها مطلقة وكانت ربة بيته . ملكة آماله ، فخرجت الى العالم تحمل تيارات عنيفة ، فما ان استقر بها الأمر وسط هذه التيارات الجارفة : تغلبت الغريزة فاندفعت تحت تأثير الايحاء والاشهواء فأخذت تبحث عن هذا الاله القوي الجبار الذي يأمر ويقضي والذي لم تجده في زوجها الوادع ، لقد أخذت تبحث عمن يشبع غرائزها فوجدت هذا الاله العنيف في شخص الزعيم ساندیب . فعبدت فيه ما افتقدت في زوجها من قوة وعنف واستبداد . وأخذت تتكر على زوجها خلقه وتتهمه بأنه ضعيف قد فرط في حق الزوجة والوطن . انه لم يشترك في هياج أو تخريب أو تهليل للزعيم ، وهذه كلها أقيسة للوطنية الصادقة ، ان الوطن هو ساندیب فاذا لم يحب زوجها ساندیب فهو خائن لا يحب وطنه ، ولقد أحس الزوج بهذا الحرج من زوجته ولكنه مع ذلك تركها وعقيدتها لا يعنفها ولا يثيرها ولا يصدها لأنه قد أصبحت امرأة أخرى ، قد فقدت إرادتها تسير دون وعي منها متأثرة بشخصية ساندیب ، ولقد شاء ساندیب أن يمد يده الى مال الأمير فدبر مؤامرة أحكم تنفيذها بأن أفهم الزوجة بأن الحركة الوطنية في حاجة الى مال وان المال لا بد منه وان الاغنياء والامراء قد أمسكوا أيديهم لضعف وطنيتهم ، فأخذت الزوجة تغضب على هؤلاء الممسكين فدبر الأمر حتى اجتمع الرأي لديها على أن تسرق مال زوجها لتمد ساندیب بما طلب تلبية لنداء الوطن ، والزوجة لا ترى حرجاً فيما أتت ، فلقد أصبحت لصة أمام الضمير والقانون ولكنها كانت في المستهركي لا ارادة له ولا بصر

والزوج قد يعمى بكل شيء ، وقد يجد ان أمرأته قد أثمت ولكنه يلتمس لها المعاذير ، وأنى يجدي التوجيه أو النصح وقد أفلت العصفور من القفص !

فهو يحدث نفسه عندما علم ان بيمالا قد سرقت مالة تمد به الحركة الوطنية فيقول :

« ان بيمالا قد اضطرت الى سرقة المال لأنها لا تستطيع ان تتزوج بين الوطن وبين هذا المال من طريق الدين . ولا بد أنها تعلم أني الخائف أراقبها باستبدادي وتمسكي برأيي . فمن الخير بالنسبة لي أن لا يتفيدون إلا بفكر واحد — وهو يتفق مع هؤلاء المستبدين بأفكارهم الذين يخدعونهم — فالمرأة لا يصلح ترقيق رقيد الزوج »

وكم كانت بيمالا صادقة كل الصدق عندما أحست أنها قد امتلكت قلب زوجها وانه قد أحاطها بقلبه دون عقله فهي تقول

« ان من شأن الرجل أن يفكر فوق أن تفكر من تحب المرأة »

ولقد أصبح الزوج يتردد في فهم العلاقة الزوجية ، فهو يحدث نفسه اذ وجد زوجته قد خرجت من بيته الى العالم فيقول :

امرأتي ؟ وما معنى امرأة ؟ انها القناعة جبلة امتلأت بأنفاسك وحفظتها الليل والنهار ، ولكنها مع ذلك تتفجر وتصبح هباء لاصفع اصطدام

امرأتي ؟ ولكن كيف أتى لي هذا التملك ؟ فمن قالت لي اني لنفسي ، فكيف أقول لها ، لا ، بل انك لي أنا ؟ وهل استطيع ان أحبس شخصية كاملة في حدود هذا الاسم ، وأسجن شخص بيالا في نقطة الزوجة ؟

ولكن الزوج عاد يوماً الى نفسه يحدثها مؤنباً فيقول :

« وكنت أحسب انها حين تتخلص من الواجبات البيتية تكون قد تخلصت من الظلم وتكفي رأيت عندما أندفعت من البيت الى الفناء الخارجي ان الظلم قد سرى الى دمها وانه فطري فيها ، فهي تميل الى القسوة حتى انها أصبحت لا تنكر القتل . أما انا فاني ارى أداء الواجب اخلالا به اذا كان هذا الاداء من سبيل العنف وبتأثير الهيج . ولاشك انها تعدني ضعيفاً وغير وطني وتلقم علي لاني لا اعدو مع صبيان الازقة متظاهراً أنشد معهم النشيد الوطني »

وأخيراً لا بد للفضيلة أن تنتصر . فيستمع الزوج نداء الضمير يحاسبه :

« لقد اطلقت العنان لزوجي فانطلقت دون وعي مني ، وتلاشت هذه المعاني المقدسة التي كانت تشرق علي مني منذ دخلته بيالا بقلب خفق ، وكانت تراني زوجها المعبود وتجد سعادتها في ان تشعر دائماً بولايتي عليها . لقد كنت ظالما حينما حاولت ان اجعل بيالا كما تريد فطرتي لا كما تدعو فطرتها هي . لقد كنت مستبداً عندما اطلقت لها عنان الحرية . لقد تأثرت بشخصية ساديب لانها لم تجد في زوجها عنده الشخصية التي يجب ان تخضع لعظمتها فتعبدها وتجد امامها دائماً . ان شخصية الرجل يجب أن تقود الزوجة دائماً وإلا بحثت الزوجة عن معبود آخر يقودها . امرأتي ؟ لست املكك ولكنك وديعة ذات شخصية لها معانيها وقيمها — وليست الزوجة عدة تسير في الطريق الذي يريده الرجل

وانتصرت الفضيلة مرة أخرى عند ما جلست الزوجة يحاسبها ضميرها فتقول :

« لابد لي من ان اعترف بأني حين سرقت مال زوجي واعطيته لساديب بقصد بيعه وبين ساديب كل امتزاج روحي وذهب كل ما كان له علي من السلطان وصرت اسمع اقواله فأجدها جافية مبتذلة بعد ان كانت وحياً مملوءاً بالعاطفة واليقظة والحياة ... » ويح لي انني اريد ان اجعل الذل المسروق ولكن ان تكتاب الذنب ليس بالامر اليسير فالسير هو التكفير عن هذا الذنب » ... « ولم اغفر لي هذه السقطة وانسحني تلك الدقيقة التي اسكرتني عندما كنت معي ، وهون علي عذابي لاستطيع احتماله ، فليس غير انهماك اللاهجائية يجري ما تلف ويطير ما تتدنس . الا توسيفاك بيتي ، انها كل ما بقي لي » ... « ان الذي يقطع قلبي هو خوفي ان لا تعود سعادتي الزوجية الى ما كانت عليه من قبل . ان الله يستطيع ان يخلق جديداً ولكن هل يستطيع ربي أن يعيد خلق ما تلف وتلاشى ؟

« لقد دفعني عاطفة التوبة فقدمت منزلي وخلفت سبيلي ، فلا اعلم الفتاة من سجني . انى متجردة في ظلام الليل

ولكن تاجور قد أعلن رأيه في امرأة مذكب في صباه مسرحيته الصغيرة «الخالدة شيترا»

وشيترا ابنة ملوك مانيبور الذين أعطاهم الله عهداً أن يكون من نسلهم دائماً ذكر يرث ملكهم ويحمي ذمارهم ؛ حتى جاءت شيترا أول من ولدت أنثى ، فشاء أبوها أن ينشئها تنشئة الرجال ، وأن يروضها على الحياة منذ حداثتها ، على أعمال الحرب والصيد والفروسية فألبسها لباس الفرسان وتركها في الغابات بين الوحوش تتدرب بها وتصيد منها وظلت على هذه الحال لم تر عينها رجلاً ، فظن أبوها أنه قد قهرها أنوثتها ، وأنه قد عالج ما قهرته عليه القدر من حرمان الولد الذكر الذي سيرث ملكه إذ استطاع أن يخلق من أنثاه ذكراً سوياً

ولكن شيترا خرجت على عادتها ذات يوم الى الغاب في طلب الصيد فالتقت بشاب باسك يدعى أرجونا وهنا تحدثك شيترا فتقول :

« لقد رأيت رأسه في الغاب وحدي ورجلاه قد وقفا في سبيلي فأمرته أن يفسح لي الطريق فلم يعبأ بأمري فوخزته بقذيفة وهي فوق ناهضة على القمة كأنها قد نبتت من الثرى قد اندفع فجأة من هشيم الرماد ، وانثنى عنه ابتسامة حلوة . . . ولأول مرة في حياتي شعرت بأني أنثى ووقفت بوجودي أمام رجل . . . لقد كسرت عودي ونبذته ، والقيت الى النار سهامي ، وازورت عما عدي بعد أن شدتهما الرماية . . . ايه أيها الغرام ، لقد طوحت بكبريائي ورميت باسترجالي الى حضيض الارض . اني امسح كل تجاربي تحت قدميك فهات دروسك ، وهبني قوة الضعيف العاجز وسلاح اليد الرقيق »

وخلعت شيترا لأول مرة في حياتها لباس الرجال وسعت الى أول رجل رأته عيناها في أساور وحرير وأرجوان وحجال مشيرة الى ظهر الرجولة وثيابها بقوتها

« انه كان يقوم الشباب دليلاً لي وعاوني »

وأي لوعة تمزج بقلب شيترا يوم سمعت الى لمة الجمال تبهرها جمال الأنوثة الغالبة واذ عاد اليها جلال الأنوثة أحست أنها امرأة التي تجب أن تستعبد الرجال وانها لتقول لزوجها دائماً :

ان الهدية التي تقدمها اليك يدا مخورة معجبة هي قلب سيدة

ويوم دهش جمال الشاب عنها غابت أن يعاملها الرجل فقالت له :

« سيدي لقد كنت أحسبك قد رأيت امرأة في هذا الغاب قد نزلت من السماء . وانظرت جمال شيترا هذه في هذا الغاب . لقد رأيتها ولا بد أن تحب جمالها ، ولكنه يعجز عن ادراك عينيه ، وهو عجز شريف عظيم ، لأنه لا يستطيع ان يغير الطبيعة — والآن وقد ذهبت بصيرة الحب عني فاقبل هذه المرأة كخادمة تخدمك فيما يسرك »